



النزاع الصفوي العثماني حول العراق

د. طه ثلجي الطراونة

قسم التاريخ - جامعة مؤتة

النزاع الصفوي العثماني حول العراق

ملخص

يتناول هذا البحث النزاع الصفوي العثماني حول العراق، الذي كان المحور الأساسي في الحقبة المبكرة من التاريخ الحديث لهذا القطر. فيعرض للاحتلال الصفوي الأول للعراق سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م، وبسط السيطرة العثمانية عليه سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٤م، واشتباكات الحدود واتفاقيات الصلح بين الطرفين حتى سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م، ويبين كذلك الاحتلال الصفوي الثاني للعراق سنة ١٠٣٣هـ / ١٦٢٢م، واستعادة العثمانيين له واتفاقية صلح زهاب سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٩م. ومن ثم يسعى إلى تحليل أسباب هذا النزاع المبرر وتلمسها في الجغرافية السياسية، والعوامل الاستراتيجية والاقتصادية والخلافات المذهبية ودور بعض القوى المحلية فيه، وأخيرا نتائج ذلك النزاع على الدولتين وعلى القطر موضع النزاع.

The Safavid-Ottoman struggle over Iraq

Dr. Taha Thalgy

Abstract

This paper aims at examining the Safavid - Ottoman struggle over Iraq, which was an important chapter in its early modern history. It deals with the first Safavid occupation of this country in 914A.H/ 1508A.D, and its submission to the Ottomans in 940/1534, as well as clashes over frontiers and peace agreements until 1020/1611. It also studies, the second Safavid occupation of Iraq in 1033/ 1622 and the Ottoman restoration of the country in addition to Zuhab Treaty in 1048/1639. Then, the paper tries to analyze the major geopolitical, strategic, economic, and sectarian factors involved in the struggle And finally, it tackles the outcomes of the struggle for both sides and for Iraq itself.

النزاع الصفوي العثماني حول العراق

ظل العراق منذ استيلاء المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م حتى قيام دولته الحديثة سنة ١٩٢١م ينتقل من يد غاز إلى يد متغلب إلى يد غاز آخر، وعانى الكثير جراء تلك التقلبات. فعدا معاناة الناس واستنزاف مواردهم كانت تبرز مشكلات وتستجد أمور بين الحين والآخر ترك بعضها بدون حلول تحت ركام السنين ، ولا تزال تتفاعل حتى الوقت الحاضر.

ففي الرابع من صفر سنة ٦٥٦هـ / العاشر من شباط ١٢٥٨م سلم الخليفة العباسي المستعصم بالله، آخر الخلفاء العباسيين، للقائد المغولي هولاكو، الذي أباح بغداد لجموعته من الجنود عاثت فيها سلبا ونهبا وقتلا وتدميرا، وراح الخليفة وعائلته وعدد من أعوانه وكبار رجال دولته بين الضحايا. فانتهت الخلافة العباسية وأصبحت بغداد مركز إقليم عرف باسم العراق العربي ضمن الدولة الالخانية، إحدى الدول التي نجمت عن تمزق إمبراطورية المغول (١).

واستمر خضوع العراق للدولة الالخانية حوالي ثمانين سنة منذ سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م حتى سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٨م، ليخضع بعد ذلك إلى سلالة مغولية أخرى هي الجلائرية حوالي سبعين سنة أي حتى سنة ٨١٥هـ / ١٤١١م، وتخللها سيطرة تيمور لنك عليه مرتين ؛ كانت الأولى سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٣م، وكانت الأخرى سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠١م (٢). وحل محل التيموريين زعامات من التركمان الذين تبعوا تيمور لنك في تحركاته؛ القراقوينلو التي أنهى زعيمها قرا يوسف حكم الجلائريين، وسيطرت على أملاكهم بما فيها العراق ، واستمرت حتى سنة ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م، وأعقبتها أسرة تركمانية أخرى هي الآق قوينلو التي استمرت حتى سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٨م.

وعندما ظهر الصفويون وملأوا الفراغ السياسي في أذربيجان واستولوا على أملاك الآق قوينلو، كان العراق من بين تلك الأملاك وسيطر عليه الشاه إسماعيل الصفوي سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م (٣).

ومع خروجه من يد الصفويين إلى يد العثمانيين سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٤م أصبح جزءاً من الدولة العثمانية. وبعد حوالي قرن من الزمن استولى عليه الصفويون مرة أخرى ، واسترده العثمانيون بعد خمس عشرة سنة على الاحتلال الصفوي الثاني، وبقي بأيديهم حتى سقوط الدولة العثمانية لتُورث دولة العراق الحديثة ذلك النزاع مع جارتها إيران.

إن موضوع هذه الدراسة، وهو النزاع الصفوي العثماني حول العراق، حلقة شديدة الحساسية في سلسلة المنازعات المشار إليها ؛ ذلك لأنه حتى الاحتلال الصفوي الأول سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م، كان النزاع للسيطرة على هذا البلد نزاعاً بين عائلات حاكمة مغولية وتركمانية تطرد إحداها الأخرى أو تقضي عليها. أما الصراع الصفوي العثماني فكان صراعاً دولياً ذا أسباب مختلفة ، غطى فترة أطول من الزمان.

ولعل من المفيد قبل الشروع في الدخول إلى تفاصيل هذا الموضوع الإلماح بسرعة إلى نشأة الدولتين إلى أن تقابلت حدودهما عند العراق. ففي حوالي سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م ظهرت الإمارة العثمانية في الأناضول كغيرها من الإمارات التركية التي ظهرت في هذه المنطقة. وأخذت تتوسع على حساب الإمبراطورية البيزنطية وسلطنة سلاجقة الروم (٤).

وبعد حوالي ثلثي قرن على نشأة الإمارة العثمانية، أخذت تتطور لتصبح دولة مستقرة ذات نظام عسكري متميز. ومنذ حوالي ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م، ابتدأت هذه الإمارة تتوسع في البر الأوربي، ونقلت عاصمتها من بورصة إلى أدرنة. ولما ارتقى السلطان محمد الفاتح (٨٥٥هـ / ١٤٥١م - ٨٨٦هـ / ١٤٨١م) العرش العثماني عزم على إنهاء الإمبراطورية البيزنطية والاستيلاء على ما تبقى لها من أملاك في الأناضول والبلقان. ونجح في سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م في الاستيلاء على القسطنطينية. وفي عهده وعهد بايزيد الأول (٨٨٦هـ / ١٤٨١م - ٩١٨هـ / ١٥١٢م)، توسع العثمانيون حتى أصبحوا دولة أسيو أوربية كبرى تسيطر على كل

من الأناضول والبلقان. وفي عهد السلطان سليم الأول (٩١٨هـ / ١٥١٢م - ٩٢٨هـ / ١٥٢٠م) أخذ التوسع العثماني يتجه شرقاً في أراض إسلامية (٥).
 وشهد مطلع القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ظهور دولة مسلمة جديدة هي الدولة الصفوية التي أعلنها الشاه إسماعيل (٩٠٦هـ / ١٥٠٠م - ٩٣٢هـ / ١٥٢٤م). وتعود جذور هذه الدولة إلى طريقة صوفية أسسها الشيخ صفي الدين الأردبيلي (٦٥١هـ / ١٢٥٢م - ٧٣٦هـ / ١٣٣٤م). وبقيت عائلة الشيخ صفي الدين، وتزايدت قوتها على مدى الأيام خلال أوقات السيطرة المغولية والتركمانية والتميمورية في أذربيجان، حتى برزت في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بوصفها أعظم قوة في المنطقة. ومن الجدير بالذكر أن قادتها الأربعة الأوائل وهم: صفي الدين (٦٥١هـ / ١٢٥٢م - ٧٣٦هـ / ١٣٣٤م)، وصدر الدين (٧٠٥هـ / ١٣٠٤م - ٧٩٤هـ / ١٣٩١م)، وخواجه علي (٧٩٤هـ / ١٣٩١م - ٨٣٢هـ / ١٤٢٧م)، وإبراهيم (٨٣٢هـ / ١٤٢٧م - ٨٥١هـ / ١٤٤٧م) كانوا رجال ورع وتصوف وتأمل روحاني (٦).

وقد جاء تحول الطريقة الصوفية في أردبيل، في إقليم أذربيجان، من جماعة صوفية مسالمة إلى حركة عسكرية تعتمد مبدأ الغزو في حوالي منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على يد الشيخ جنيد بن الشيخ إبراهيم (٨٣٢هـ / ١٤٤٧م - ٨٦٦هـ / ١٤٦٠م). كما اتخذ الشيخ جنيد خطوة مهمة أخرى بتحويله من المذهب السني إلى المذهب الشيعي الاثني عشري (٧).

وباتباع مبدأ الغزو، وتصاعده ضد النصاري في جورجيا في عهد حيدر بن جنيد (٨٦٦هـ / ١٤٠٦م - ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م)، الذي أصبح لديه أكثر من ستة آلاف من العسكر الذين عرفوا باسم القزلباش؛ أي ذوي الرؤوس الحمراء، فإن الحركة الصفوية صارت تشبه إلى حد كبير في نشأتها الإمارة العثمانية في طورها المبكر. ولكن لكي يوجد الصفويون قاعدة لهم ينطلقون منها كما فعل العثمانيون، فقد كافحوا

بشدة في سبيل هذا الهدف، وسقط ثلاثة من قادتهم وهم جنيد وابنه حيدر وحفيده علي صرعى في ساح المعارك على يد حكام مسلمين (٨).

وبعد موت علي سنة (٩٠١هـ / ١٤٩٤م) انتقلت زعامة الحركة الصفوية إلى أخيه الأصغر إسماعيل، الذي كان طفلاً في السابعة من العمر، ونجح في الإفلات من يد رستم، سلطان الآق قويونللو، ووجد مأوى آمناً لدى حاكم لسيجان في أرمينية القصوى. ولما بلغ الثالثة عشرة من العمر، عاد مع أتباعه من الصفوية من القبائل التركمانية المختلفة إلى أربيل ليهزم اثنين من سلاطين الآق قويونللو وهما: الوند الذي هزم في موقعة شرور سنة ٩٠٧هـ / ١٥٠١م، ومراد الذي هزم بالقرب من همذان سنة ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م (٩).

وفور انتصار إسماعيل على الوند سنة ٩٠٧هـ / ١٥٠١م تم تتويجه شاهاً لأذربيجان في مدينة تبريز في المحرم ٩٠٧هـ / تموز ١٥٠١م، ثم سارع إلى إعلان المذهب الشيعي الاثني عشري مذهباً رسمياً لدولته (١٠).

وهكذا قامت الدولة الصفوية وورثت إمارة الآق قويونللو لتغدو جارا مقبوتاً للعثمانيين ؛ إذ كانت القوة الوحيدة المؤهلة لملء الفراغ السياسي في غربي فارس وأذربيجان، وأصبحت على تماس مباشر مع الدولة العثمانية السنية المذهب التي نظرت إليها على أنها خارجة عن الدين. ولعل واقع الأمر أن العثمانيين وجدوا في الصفويين أكثر من خطر يهدد عقيدتهم ؛ لا بل رأوا وجودهم خطراً سياسياً يهدد السيطرة العثمانية على الأناضول (١١).

وفي سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م اتخذ الشاه خطوة حاسمة في صراعه مع بقايا الآق قويونللو عندما أرسل عساكره إلى العراق من أجل إخضاعها لمملكته المتنامية. وقد صادفت حملة الشاه نجاحاً كبيراً ؛ ذلك لأن سلطان الآق قويونللو مراد، المملوء رعباً من الشاه فر إلى العثمانيين وترك بغداد بعهدة أحد رجاله وهو بارك. ولما تقدم جيش الشاه بقيادة لالا حسين إلى بغداد لحق بارك بحلب، ووقعت بغداد فريسة سهلة بيد الجيش الصفوي (١٢).

وبعد استيلاء الصفويين على بغداد، دخل الشاه إسماعيل نفسه المدينة، وأمر على الفور بقتل رجال بارك الذين قتل الكثير منهم، وأطلق سراح السيد محمد كمونة، أحد أعيان سادة العراق، الذي كان مسجوناً في بئر بأمر بارك، وعينه الشاه متولياً للنجف وحاكماً لعدد من مدن العراق. كما عين خادم بك، أمير ديواني، حاكماً لبغداد وجوارها، ولقبه خليفة الخلفاء (١٣). ولم يكتفِ الشاه إسماعيل بقتل رجال بارك، بل أمر بقتل عدد كبير من أهل السنة، وتدمير مقابرهم، وحرق رفاة بعض أئمتهم. فكان أعقاب الشيخ عبد القادر الجيلاني وعدد من أتباعه من بين الذين تعرضوا لاضطهاد الشاه، فقاموا بحملة دعائية ضده بين صفوف أهل السنة، وخاصة في الأراضي العثمانية (١٤).

وبعد إخضاع بغداد توجه الشاه إسماعيل إلى الحوزة في إقليم عربستان حيث توجد إمارة المشعشين (١٥). ولم يستطع السلطان فياض المشعشي أن يقاوم الشاه عباس، فهرب من عاصمته فدخلها الشاه وعين أحد رجاله حاكماً لها ليستولي بعد ذلك على اللور وخرم آباد، وبذلك خضعت له جميع منطقة عربستان. وفي سنة ٩١٦هـ / ١٥١٠م سيطر الشاه على الموصل، وهكذا وقع كل العراق في قبضته (١٦).

ويتضح مما تقدم أن ظهور الدولة الصفوية الفتية المتنامية، ذات المذهب الشيعي على الحدود الشرقية للدولة العثمانية كان أمراً مزعجاً للغاية بالنسبة للعثمانيين. ولذلك كان الصدام بين القوتين أمراً حتمياً، لا سيما أن التوسع الصفوي في العراق يتزامن مع ارتقاء السلطان سليم الأول العرش العثماني. فقد ثار سليم ضد أبيه وإخوته، وثار أيضاً ضد السياسة العثمانية التقليدية الرامية إلى عدم التوسع في آسيا، أو بالأحرى في بلاد إسلامية. ذلك لأن تلك السياسة لم تعد واقعية للتعامل مع المشكلات الجديدة التي نجمت بعد ظهور الدولة الصفوية وتوسعها (١٧).

ولقد استشعر السلطان سليم الخطر على حدوده الشرقية بسبب وجود أعداد كبيرة من التركمان الذين كانوا يعيشون في المناطق الحدودية، ويتعاطفون مع الدعاية

الصفوية (١٨). ففي فترة الاضطرابات التي سبقت استيلاء السلطان سليم على العرش، وقعت فتنة في ولاية أخيه قررقود بتكه فتركها إلى ولاية مغنيسيا. ف وقعت بيد أحد مؤيدي الصفويين وهو شاه قولي الذي كان يبشر بقرب نهاية العثمانيين، معلنا أن الشاه إسماعيل هو تجسيد الألوهية، وأنه المهدي الذي سيعيد حكم المؤمنين الحقيقيين (١٩). يضاف إلى ذلك ما ذكر من أن أحمد بن بابيزيد، شقيق سليم الأكبر، المرشح المرجح لولاية العهد العثماني خسر ما كان يصبو إليه، فسعى للتحالف مع الشاه إسماعيل. وبعد مقتل أحمد هذا، فر ابنه مراد إلى الشاه الذي استقبله وساعده ضد عمه السلطان سليم. وإزاء هذه التطورات وجد السلطان سليم أن محاربة الصفويين أمر لا مفر منه (٢٠).

ونتيجة لما تقدم عزم السلطان سليم على غزو الصفويين وتحقيق نصر حاسم ضدهم. فاتفق مع المماليك وأمن حدوده الجنوبية، وحشد جيشا قدر عدده بمائتي ألف محارب تولى قيادته بنفسه. وفي الوقت ذاته وجه حملة تأديبية ضد الأناضول، خشية وقوع ثورة فيها أثناء غيابه. فأوقعت بالشبيعة وقتلت وأسرت حوالي أربعين ألفا. وسجن الأسرى في الأراضي العثمانية في أوربا (٢١). أما السلطان فاتجه إلى إيران حيث التقى مع الصفويين في جالديران في الثالث من رجب سنة ٩٢٠هـ / الثالث والعشرين من آب ١٥١٤م. وهزم الشاه إسماعيل في تلك الموقعة هزيمة ساحقة، وأخلى عاصمته تبريز للعثمانيين الذين دخلوها دخول الفاتحين (٢٢).

وعلى الرغم من أن موقعة جالديران تمخضت عن نتائج خطيرة على الصفويين عامة، وعلى قيادة الشاه إسماعيل على وجه الخصوص، فإن العداء بين الدولتين لم ينته، فلم يتمكن العثمانيون من الاحتفاظ بتبريز لمدة أطول، كما لم يتمكنوا من القضاء على الأسرة الصفوية أو حتى لجم نفوذها. وهذا يعني أن جالديران لم تغير ميزان القوى بين الطرفين، وإن كان قد تآرجح بعض الوقت ومال لصالح العثمانيين (٢٣).

ومهما يكن من أمر، ففي الوقت الذي جرت فيه جالديران، كان العراق تحت حكم الصفويين. وقد جاء التوسع العثماني في ديار بكر، وإمارة دلفادار في مرعش والبستان، وأخيراً في ديار السلطنة المملوكية في الشام ومصر، ليجعل من العراق منطقة ساخنة بين الدولتين رغم أنه تحت السيطرة الصفوية، التي سرعان ما اهتزت. ففي سنة ٩٣٤هـ / ١٥٢٧م استولى الأمير ذو الفقار بن نخود سلطان على السلطة في بغداد. فقد كان إبراهيم خان، عم ذو الفقار، هو حاكم الصفويين في هذه المدينة. ولما توجه إبراهيم خان على رأس قوة من خمسة آلاف محارب للانضمام إلى الشاه طهماسب الأول (٩٣٠هـ / ١٥٢٤م - ٩٨٤هـ / ١٥٧٨م) بن الشاه إسماعيل، انتهز ذو الفقار فرصة خروج عمه من بغداد، فهاجمه وقتله، وأسرع عائداً إلى بغداد فخضعت له بدون مقاومة (٢٤).

ولما كان ذو الفقار يدرك أنه لن يتمكن من الحفاظ على استقلاله في بغداد، أسرع إلى اعلان خضوعه للسلطان العثماني وذلك بذكر اسمه في خطبة الجمعة وكتابته على النقد، وأرسل رسائل إلى السلطان العثماني سليمان القانوني (٩٢٦هـ / ١٥٢٠م - ٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) يطلب فيها بسط الحماية العثمانية عليه (٢٥).

أقلق هذا الفعل الشاه طهماسب، فزحف إلى بغداد سنة ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م، ولم تغلج عدة هجمات شنها عليها في استردادها لقوة موقف ذي الفقار فيها. ولكن الحل الأمثل في مثل هذه الظروف هو المؤامرة والخيانة. فقد اتفق الشاه مع أخوي ذي الفقار، أحمد بك وعلي بك، اللذين اتفقا مع بضعة عشر من المتآمرين، واستغل الجميع فرصة وجود ذو الفقار في لحظة استرخاء فهاجموه وقتلوه. وعلى الفور عين الشاه محمد خان تكلو حاكماً لبغداد، وعين حاكماً آخرين من قبله لبعض النواحي والمدن العراقية الأخرى وعاد إلى قزوین (٢٦).

كان استرداد الشاه طهماسب لبغداد، ومقتل ذي الفقار قبل وصول العثمانيين للمدينة ذريعة للسلطان سليمان للاتفات للعراق وفرصة لا ينبغي إضاعتها. وكان هناك

تطورات أخرى وتعتيدات بين الصفويين والعثمانيين، قادت إلى هجوم عثماني جديد ضد الصفويين نجم عنه خضوع العراق للعثمانيين. ومن ذلك أن شرف خان، صاحب تفلّيس في أرمينية، الذي كان خاضعا للعثمانيين، ثار ضدهم ولحق بالشاه طهماسب، ودخل في خدمته (٢٧). ومن جهة أخرى هرب حاكم تبريز الصفوي أولام توكلو إلى العثمانيين، الذين أعطوه تفلّيس إقطاعا له، وكلفوه بمحاربة شرف خان، فقتل أولام توكلو شرف خان في تفلّيس، وهزم قواته، وقتل عددا كبيرا من أعوانه. وقد تلقى السلطان في هذه الأثناء استغاثات من أهل السنة في بغداد لنجدتهم وإنقاذهم (٢٨).

ونتيجة لتلك التطورات عزم السلطان سليمان القانوني على إنهاء ما ابتدأه أبوه بشان الصفويين. فأرسل حملة بقيادة الصدر الأعظم إبراهيم باشا إلى أنزبيجان في مطلع ربيع الثاني ٩٤٠هـ / ١٩ تشرين الثاني ١٥٣٣م، فتوجه الصدر الأعظم على رأس الحملة ودخل تبريز وعددا من المدن المجاورة لها. وفي ذي القعدة من السنة نفسها/ حزيران - تموز ١٥٣٤م، توجه السلطان نفسه إلى تبريز. وتلاقت قواته وقوات الصدر الأعظم وساروا جميعا إلى بغداد، ووقعت بيد السلطان الأجزاء الشمالية من العراق. وفي هذه الأثناء وجد حاكم بغداد الصفوي محمد خان تكلو نفسه في ورطة وتلقى أمرا من الشاه بأن يخلي هو وجنوده المدينة. ولكن أتباعه من قبيلة تكلو تمردوا عليه ورفضوا هذا الطلب. وأخيرا فر الخان ومؤيدوه الذين تراوح عددهم ما بين سبعمئة إلى ألف محارب إلى الشاه، وظلت بقية جماعة تكلو في بغداد. وبعد ذلك أحضر عدد من زعماء تكلو مفاتيح بغداد للسلطان سليمان وقدموا له الولاء والطاعة (٢٩).

دخل السلطان سليمان القانوني بغداد في الثاني والعشرين من جمادي الأولى ٩٤١هـ / الثلاثين من تشرين الثاني ١٥٣٤م، وأقام فيها حتى فصل الربيع وزار أثناء وجوده في بغداد ضريح الإمام أبي حنيفة، الذي كان الشاه إسماعيل قد أمر بنقض تربته حين استولى عليها، فجدد السلطان على الضريح مشهدا عظيما. وزار

مقام الإمام موسى الكاظم وضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني، كما زار مشهد الإمام علي في النجف ومشهد ابنه الحسين في كربلاء، وزار عددا من المقامات الأخرى للتبرك بها (٣٠). وبعد ذلك توافد عليه زعماء القبائل والأعيان يقدمون ولاءهم، ومنهم راشد بن مغماس الذي كان مستقلا بالبصرة، فأقره السلطان حاكما للمدينة، كما وخضعت للسلطان مناطق العراف والجزائر في التلال اللورية والحويزة. وبذلك دخل العراق كلها تحت السيطرة العثمانية (٣١).

قسم العثمانيون العراق إلى أربع ولايات هي؛ بغداد والبصرة والموصل وشهرزور. ومنذ خضوع العراق للعثمانيين في السنة المشار إليها حتى سنة ١٠٣٣هـ / ١٦٢٢م، وهو تاريخ الاحتلال الصفوي الثاني لبغداد، كان أمن هذا البلد يتعرض هزة بين الفينة والأخرى. ففي سنة ٩٦١هـ / ١٥٥٢م هاجم عدد من القزلباش شهرزور في شمالي العراق، التي كان حاكمها بكة، أحد أتباع السلطان العثماني. فكلف الباب العالي والي بغداد، تمرد علي باشا، باستعادتها. فتوجه والي بغداد إلى شهرزور وألقى الحصار حولها، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليها، ولكن خليفته سليمان باشا نجح في تجديد الحصار عليها حتى سقطت بيده سنة ٩٦٣هـ / ١٥٥٦م (٣٢).

وبعد أن دخل سليمان باشا شهرزور جاءه الأمر بأن يسرع إلى بغداد بسبب ما أشيع من أن الشاه طهماسب كان في طريقه لمهاجمتها. وفي السنة نفسها أرسل الشاه، قولي خليفة حافظ ختم الشاه، وعددا من الأمراء مع مجموعة من القزلباش للإغارة على بغداد والمناطق المجاورة لها، وقد تم صد المهاجمين على يد الزعيم الكردي حسين بك، حاكم العمادية (٣٣).

أما العثمانيون من جهتهم فقد استخدموا العراق، ولا سيما بغداد، نقطة متقدمة ضد الصفويين، وهو مما أسفر عن هجمات متبادلة بين الطرفين على جانبي الحدود. ففي سنة ٩٩٧هـ / ١٥٨٧م، استولى والي بغداد سنان باشا على دزفول ونهاوند، وأغار على همذان ثم عاد إلى بغداد. وخلال ولايته الثانية لبغداد أغار سنان باشا

على نهاوند واحتلها بعد أن كان الصفويون قد استردوها سنة ١٠٠١هـ / ١٥٩٦م، وأسر حاكمها الصفوي (٣٤).

وفي سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م، اندلع النزاع ما بين مهدي قولي خان شاملو حاكم تستر و قبيلة الأفشار المدعومة من مبارك المشعشي صاحب الحويزة (٣٥). وقد ازعجت تحركات هذا الأمير الأهالي في ناحية البصرة، ونهب عساكره المنطقة، ولذلك طلب الناس مساعدة الشاه عباس الكبير (٩٨٩هـ / ١٥٨١م - ١٠٣٨هـ / ١٦٢٩م) ضد الأمير المشعشي. ولكن خطر أتباع الشاه تجاوز خطر المشعشين، ولهذا فقد طلب الناس نتيجة ما أصابهم من إحباط نجدة العثمانيين. وكتب الباب العالي إلى الشاه لوقف نشاطات أتباعه في تلك المنطقة (٣٦).

وعلى الرغم من عدم وضوح رد الشاه على المطلب العثماني، يبدو أنه استجاب له، فالشاه لم يرد أن يبقى السيد مبارك المشعشع عدواً دائماً، كما أنه حاول تعزيز علاقاته السلمية مع العثمانيين، بدليل أنه في سنة ١٠٠٥هـ / ١٥٩٧م عاد ذو الفقار خان، سفير الشاه إلى العثمانيين برسالة ودية من السلطان العثماني محمد الثالث (١٠٣هـ / ١٥٩٥م - ١٠١٢هـ / ١٦٠٣م) إلى الشاه تلح على تمكين السلم بين الدولتين (٣٧).

ومن الواضح أن العثمانيين مالوا إلى السلم في هذه الفترة بالنظر إلى ما كانت تمر به دولتهم من ظروف إثر تقهقرها في الجبهة الأوروبية، بالإضافة إلى الفتن والاضطرابات الداخلية، التي اشتعلت في الأناضول، وعرفت باسم الحركة الجلالية وانتشرت في ثلثي الأراضي العثمانية (٣٨). وقد أغري ذلك الحال الشاه عباس الكبير بإعلان الحرب على العثمانيين منتهاج سياسة هجومية ضدهم بدلا من السياسة الدفاعية، التي دأب عليها الصفويون منذ هزيمتهم في جالديران. فاسترد الشاه نتيجة لذلك تبريز واللور وأجزاء من كردستان وأذربيجان وأجزاء من أرمينية وجورجيا (٣٩).

وقد دفع ذلك الوضع السلطان أحمد الأول (١٠١٢هـ / ١٦٠٣م - ١٠٢٥هـ / ١٦١٦م) إلى اتخاذ إجراء يوقف هذا التوسع الصفوي، فأعد جيشاً بقيادة الصدر الأعظم سنان باشا، توجه سنة ١٠١٤هـ / ١٦٠٥م لمحاربة الصفويين. وتوغل سنان باشا في أراضيهم، ولكن قواته لم تدحر بسبب المقاومة الصفوية فحسب، بل لقلة المؤن وانقطاع الاتصال، بسبب صعوبة الأحوال الجوية، ولاتباع الصفويين سياسة الأرض المحروقة في المواقع التي أخذوها (٤٠).

ومع تصاعد أعمال الجلاية في الأناضول والشام، جنح العثمانيون إلى الصلح أكثر وإن استدعت دبلوماسية الصراع عدم التخلي عن خيار الحرب والتظاهر بالقوة. فبعد إخفاق حملة سنان باشا عيّن درويش باشا القبودان صدراً أعظم، واقترح على الشاه عباس أن يطلب الصلح من السلطان أحمد الأول، فوافق الشاه لكنه اقترح أن يكون الصلح على غرار شروط اتفاق أماسية سنة ٩٦٢هـ / ١٥٥٥م (٤١). ولكن الشاه لم ينتظر رد السلطان ومضى في الاستيلاء على بعض المواقع (٤٢). ومع ذلك بقيت مصلحة العثمانيين في طلب الصلح إلى جانب التظاهر بالقوة. وتقول الرواية العثمانية: "وفي سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م) ذهب الصدر الأعظم (مراد باشا) سرداراً إلى الشرق لتأديب الشاه عباس، فبوصوله إلى تبريز هرب الشاه إلى جهة العراق ومنها إلى بلاده، ثم أرسل بطلب الصلح، فقبل الصدر الأعظم هذا الطلب ببطء واشتغل بالتجهيزات الحربية، وإذ الموت أتاه فجأة في سنة ١٠٢٠هـ ٠٠٠ وعين بدله نصوح باشا ٠٠٠ أما الشاه عباس فإنه عرض على نصوح باشا الصلح على شرط أن يدفع للدولة سنوياً مائتي حمل حريراً فقبل منه، وعقد الصلح معه ثم عاد للأستانة" (٤٣).

ويبدو من هذه الرواية التي تفيض ادعاء بالعظمة والقوة أن الجانبين كانا غير راغبين في مواجهة عسكرية في هذا الفترة بخاصة. ولعل حملة الصدر الأعظم هذه لم تستهدف خضد شوكة الشاه بقدر الظفر بما يمكنه من تنازلات منه، وأن الشاه لم يهرب من مكان إلى آخر وإنما كان يراوغ.

ومهما يكن من أمر، فقد عقد الصلح بين الطرفين في سنة ١٠٢٠هـ / ١٦١١م (٤٤)، وما يخص العراق فيه فهو اشتراط السلطان العثماني أن الأراضي التابعة للأمير مبارك بن سجاد المشعشي يجب أن تكون خاضعة للعثمانيين، وأن يتمتع الشاه عن حمايته أو مساعدته، وإنه إذا ما استرد العثمانيون الأراضي التي استولى عليها هو لوخان من ولاية شهرزور فإن الشاه لا يساعده (٤٥).

ولعل أهم ما جاء في ذلك الاتفاق هو ترسيم الحدود بين الدولتين. فقد فوض السلطان والي بغداد، محمد باشا، صلاحيات واسعة في ترسيم حدود العراق العربي وفق ما كانت عليه في اتفاقية أماسية. وعين الشاه، مهدي قولي بك جاغتاي، مندوبا مطلق الصلاحية في منطقة بغداد. ولكن الممثل العثماني محمد باشا، واجه صعوبات شاقة في مهمته لحدوث تغيرات كبيرة على حدود عربستان والمناطق التابعة لبغداد، حيث كان هناك عدد من الحصون التي عرفت على أنها أراض عثمانية، أصبحت الآن بأيدي الصفويين. لكن لم يكتب لهذا المشروع السلمي أن يعمر طويلا؛ لأن اعتداءات وحوادث الحدود وحوادثها تجددت بين الطرفين (٤٦). وبعد مرور خمس سنين اصطدم الطرفان في أذربيجان في سنة ١٠٢٩هـ / ١٦١٩م، وأعقبت ذلك اتفاقية صلح أخرى هي اتفاقية سراو التي تمت على غرار اتفاقية أماسية (٤٧).

وقد وفرت التطورات الداخلية التي جرت في بغداد سنة ١٠٣٣هـ / ١٦٢٢م، فرصة ذهبية للشاه عباس الكبير لاحتلال بغداد ثانية. ففي هذه السنة قتل بكر صوباشي، أحد قادة الشرطة في بغداد واليها يوسف باشا، واستولى على الولاية. وكتب بكر إلى أحمد باشا الحافظ والي ديار بكر، وإلى السلطان مراد الرابع (١٠٣٢هـ / ١٦٢٣م - ١٠٤٩هـ / ١٦٣٩م)، بأنه أنقذ بغداد من الخائن يوسف باشا. فعين الباب العالي واليا جديدا لبغداد هو سليمان باشا. وكلف أحمد باشا الحافظ، بالزحف باتجاه بكر صوباشي. ولما كان بكر يدرك أنه لا يستطيع مقاومة

أحمد باشا الحافظ، كتب إلى الشاه عباس الكبير يعده بذكر اسمه في خطبة الجمعة وكتابته على النقد إذا أقره في حكم بغداد، وأرسل إليه مفاتيح المدينة (٤٨).

رحب الشاه عباس بهذا العرض واستجاب بسرعة، فأرسل إلى تابعه في السور، وإلى الأفسار للانضمام إلى حاكم همذان، صفي قولي خان، للزحف إلى بغداد. فتجمع الجيش بسهولة وتقدم باتجاه الحدود. وما أن ابتدأت طلائعه تظهر حتى أدرك أحمد باشا الحافظ أن جيشه المتعب سوف لا يربح المعركة مع الصفويين. ولذلك أرسل إلى بكر صوباشي يبلغه أن السلطان عينه ؛ أي بكر، والياً لبغداد، وأنه يجب أن يتولى حفظ الولاية، وأن لا يسمع للقزلباش بدخولها (٤٩).

فرح بكر صوباشي بتعيينه لولاية بغداد، فأخذ يجامل صفي قولي خان، ويعتذر له، وتعهده له بدفع نفقات الحملة الصفوية، وسأله أن يعود إلى حيث أتى. فلما بلغ ذلك الخبر الشاه عباس استبد به الغضب، وأرسل قرججي خان على رأس حملة ضد بكر صوباشي، جندت من مختلف أنحاء إيران. وسرعان ما ظهر الجيش الصفوي أمام أسوار بغداد، وانسحب أحمد باشا الحافظ إلى الموصل. وكان على بكر أن يقاوم الصفويين بمفرده. وقد هزمت قواته في أول اشتباك مع المهاجمين ولم تجد استغاثته بالسلطان وبأحمد باشا الحافظ نفعاً (٥٠). وشدت الصفويون حصارهم على بغداد، وتردى وضع الأهالي فيها إلى أبعد الحدود، بحيث إن الجياع أكلوا لحوم الكلاب وجثث الموتى. وأخيراً انضم الشاه عباس نفسه للمحاصرين. وبعد حوالي ثلاثة أشهر من الحصار اقتحمت قوات الشاه بغداد في الخامس من صفر ١٠٣٣هـ / الثامن والعشرين من تشرين أول ١٦٢٣م. فخضعت المدينة ثانية للصفويين، وقتل بكر صوباشي، وعين صفي قولي خان حاكماً لها. وعاد الشاه عباس إلى إيران، وفي طريق عودته كركوك والموصل (٥١).

ومما يجدر ذكره في هذا السياق أن تاريخ التآمر في قصور الحكام بين ذويهم أعاد نفسه مرة أخرى، وكان عاملاً حاسماً في عودة السيطرة الصفوية على بغداد. فمثلاً فعل أخوا ذى الفقار مع الشاه طهماسب، فعل محمد علي بن بكر صوباشي مع الشاه

عباس عندما أرسل إليه عارضا تسليم قلعة بغداد، التي كان يتولى أمرها، مقابل وعد الشاه بتوليته بغداد. فدل المحاصرين على البوابة السرية، فدخلوا المدينة على حين غرة، وقبض على بكر صوباشي وأخيه عمر أفندي، وعذب ومات تعذيباً. وأهين أهل السنة، وقتل منهم ما بين ثلاثين إلى أربعين ألفاً (٥٢).

ولما كانت استعادة العراق عامة، وبغداد خاصة أمراً في أول الاهتمامات العثمانية، عقد العثمانيون العزم على استردادها، مهما بلغ الثمن. فهاجمها أحمد باشا الحافظ في سنة ١٠٣٥هـ / ١٦٢٥م، وحاصرها واستطاعت قواته أن تسترد الحلة وكربلاء. والتقى مع الصفويين في عدد من المعارك الدموية. ولكن بعد مرور ستة أشهر على هذه الحملة، فشل القائد العثماني في استرداد بغداد بسبب تمرد عساكره لطول مدة الحصار (٥٣).

وبعد فشل هذه الحملة أرسلت الدولة العثمانية حملة أخرى سنة ١٠٣٩هـ / ١٠٢٩م - ١٠٣٠م إلى بغداد بقيادة الصدر الأعظم، خسرو باشا، الذي هزم جيش الشاه بالقرب من همدان في ذي القعدة ١٠٣٩هـ / حزيران ١٦٣٠م. وبعدها قرر الباشا مهاجمة أصفهان، العاصمة الصفوية آنذاك. وفي حين كان في درجوزين (٥٤)، وردّه الأمر السلطاني بالتوجه إلى بغداد، الهدف الأول والأخير للحملة، فوصلها في ربيع الثاني ١٠٤٠هـ / تشرين الثاني ١٦٣٠م. وحاصر خسرو باشا بغداد شهرين، ولم يفلح في دخولها، فعاد إلى الموصل في جمادي الثانية ١٠٤٠هـ / مطلع سنة ١٦٣١م (٥٥). وفشل في تحقيق هذه المهمة مثلما فشل سلفه أحمد باشا الحافظ.

ولما كان على العرش العثماني السلطان مراد الرابع (١٠٣٢هـ / ١٦٢٢م - ١٠٤٩هـ / ١٦٤٠م)، وهو من السلاطين العثمانيين الموصوفين بعلو الهمة، وتشبه سيرته إلى حد كبير سيرة السلطان سليم الأول، لم يتساهل في بقاء بغداد بيد الصفويين. فجهز حملة قادها بنفسه إلى بغداد في سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م. ولما بلغ السلطان المدينة خيم وجيشه قبالة سورها في رجب / تشرين الثاني من السنة

نفسها. وعلى الفور وزعت الأسلحة وأعمال الحصار على القادة. فدمر السور من مختلف الجهات، وألقيت أنقاض الأبراج المهدمة وأكياس الرمل في الخندق الكبير. وفي السادس عشر من شعبان ١٠٤٨هـ/ الثالث والعشرين من كانون أول ١٦٣٨م شن العثمانيون هجوماً عنيفاً صده الصفويون. وفي اليوم التالي شُن الهجوم العثماني العام، الذي أدى إلى استعادة المدينة، وخضوعها للسلطان بعد خمس عشرة سنة تحت السيطرة الصفوية (٥٦).

وفي شوال ١٠٤٨هـ/ شباط ١٦٣٩م غادر السلطان مراد الرابع بغداد إلى تبريز، ومن ثم إلى إستانبول. وابتدأت مفاوضات للصلح بين الطرفين استمرت من التاسع من ذي القعدة ١٠٤٨هـ/ الخامس عشر من آذار ١٦٣٩ حتى الثلاثين من ذي الحجة ١٠٤٨هـ/ الثالث من أيار ١٦٣٩م. وتم التوصل إلى اتفاقية صلح هي المعروفة باتفاقية زهاب، التي تعد أول اتفاقية حاولت أن ترسخ الحدود العثمانية الصفوية. ولعل أهم ما يخص العراق في هذه الاتفاقية هو النص على أن ولاية البصرة وتوابعها للدولة العثمانية رغم أنها لم تحدد خط الحدود في شط العرب، وهذا مما أدى إلى خلق مشكلات معقدة فيما بعد (٥٧).

وإذا ما التفتنا إلى توضيح أسباب ذلك النزاع المرير بين الدولتين المسلمتين حول السيطرة على هذا البلد، فإننا سنجد العامل الأول في الجغرافية السياسية، وموقع العراق بين الدولتين. وكما تم الإلماح في البداية فإن كلاهما كانت الدولتان توسعيتين توسيعه منذ نشأتهما.

ومع سقوط إمارة الآق قوينللو التركمانية، الكيان الحاجز ما بين العثمانيين والصفويين، أصبح العراق أملاكاً صفوية تتطلع إليه الأنظار العثمانية. وبعد وقوع بلاد الشام بأيدي العثمانيين سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م، أصبح العراق الميدان الذي ستلتقي فيه خطط وأهداف كل من الطرفين. ولكونه منطقة حدودية بين الدولتين المتصارعتين فقد كان يخضع لسيطرة الأقوى. ولأن كلا منهما استولت عليه إلى حين، بصرف النظر عن المدى الزمني لذلك الاستيلاء، ادعتا كلاهما أن لهما حقاً

في السيطرة عليه. وبذلك فإن موقع العراق الجغرافي على الحدود بين الدولتين مع الغياب التام لحكومة محلية قوية، كان العامل الأبرز في صراع هاتين القوتين للسيطرة عليه، وهو الأمر الذي تسبب في معاناة أهله واستنزاف موارده. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن المنازعات العائلية على الاستئثار بالسلطة في منطقة كردستان كانت مستمرة لا تهدأ. فالبعض يستند بالشاه الصفوي، والبعض الآخر يستند بالسلطان العثماني، وهذا مما يؤدي إلى توتر دائم في العلاقة بين الطرفين وفي تغلغل أحدهما في الأراضي الخاضعة للآخر (٥٨). ولكن إذا كان الأكراد في كردستان الإيرانية قد عانوا الأمرين على يد الشاهات الصفويين المختلفين، لأسباب مذهبية وربما لأسباب عرقية فلا ينتظر أن يكون أبناء عمومهم في كردستان العراقية أفضل حالاً في الفترات التي سيطر عليهم الصفويون خلالها (٥٩).

ولعل الوضع في الجنوب كان أشد تعقيداً وحساسية بالنظر إلى وجود إمارة المشعشين ودورها في خلق التوتر بين الدولتين. وقد وفر موقع هذه الإمارة في منطقة الأهوار نوعاً من الحماية الطبيعية لها وملجأ لزعمائها يصعب الوصول إليه (٦٠). وعلى الرغم من خضوعها للصفويين سنة ٩١٥هـ / ١٥٠٩م فإنها تمتعت بما يشبه الاستقلال الذاتي ضمن سيادة الدولة الصفوية. ولكن المشعشين كانوا يشكلون خطراً على الصفويين والعثمانيين سواء بسواء. فبالنسبة للصفويين كان خطر المشعشين ينبع من جملة من الأمور لعل أبرزها أنهم لم يكونوا شيعة اثني عشرية، وإنما كانوا ينتمون إلى فرقة أخرى لا تقبلها الاثنا عشرية؛ إذ يعتقد أنهم كانوا "علي اللهية"؛ أي يعتقدون بالوهمية الإمام علي بن أبي طالب (٦١). وعلى الرغم من أن نسب المشعشين ينتمي على الأرجح إلى قبيلة ربيعة (٦٢)، فقد اجتذبتهم فكرة الانتساب إلى البيت العلوي وفكرة المهودية بما لها من سحر وجاذبية عند جميع فرق الشيعة (٦٣)؛ فادعوا ذلك مثلما ادعاه الصفويون فيما بعد. ولعل ذلك يفسر ما وجدوه من قسوة من الصفويين. ويضاف إلى ذلك أن إمارتهم

نشأت قبل حوالي ثلثي قرن من ظهور الشاه إسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية. وهذا يعني أن لإمارة المشعشين جذوراً ليس من السهل اقتلاعها والقضاء على أتباعها في سبيل إلحاقها بالكامل بالدولة الصفوية.

ولهذا كله لم يكن المشعشون أتباعاً مخلصين للصفويين، فسارعت الحويزة بإعلان خضوعها للعثمانيين بعد استيلائهم على بغداد سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٤م. ومن هنا فصاعداً أخذ العثمانيون ينظرون إلى هذه المنطقة على أنها جزء من الأراضي الخاضعة لهم. لكن يبدو أن المشعشين كانوا يغيرون مواقفهم بين الطرفين من حين إلى آخر للحفاظ على استقلالهم. وكان العثمانيون يدعون السيادة عليهم كلما لاحت الفرصة، مثلما أكدوا في اتفاقية ١٠٢١هـ / ١٦١٢م على جعل الحويزة جزءاً من أملاكهم، وطلبوا من الصفويين الامتناع عن دعم أميرهم مبارك بن سجاد أو حمايته (٦٤). وقد كان هذا الادعاء العثماني بالسيطرة على الحويزة في غاية الأهمية؛ ذلك لأن المشعشين سواء أكانوا مستقلين أم تحت السيطرة الصفوية فإنهم كانوا يشكلون خطراً حقيقياً على العثمانيين، لأسباب أخرى غير خلافهم المذهبي معهم فلن يسمحوا بوجود أي قوة بينهم وبين الخليج.

إن أهمية الخليج بالنسبة للعثمانيين تقودنا أولاً للنظر إلى الأهمية الاستراتيجية لموقع العراق بشكل عام، ودور ذلك الموقع في النزاع عليه. فقد رأى العثمانيون أن العراق امتداد طبيعي للولايات العربية الخاضعة لهم في بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وأنه يجب أن يلحق بالدولة العثمانية، لا سيما بعد سقوط السلطنة المملوكية في الشام (لأنها سقطت في مصر عام ١٥٧١) سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م، للحيلولة دون تغلغل الدعاية الصفوية، والنفوذ الصفوي في الديار الملاصقة للعراق. وإذا ما تذكرنا ما كان للشاه من مؤيدين في بلاد الشام، انضموا إليه في بداية تحركه (٦٥)، فإنه يمكننا تصور ما كان للعراق من أهمية بالنسبة للعثمانيين.

وبقدر ما لهذا المقصد العثماني من أهمية على صعيد تأمين هدوء البلاد التابعة لهم، فإن مقصداً آخر لا يقل أهمية يتمثل في السيطرة على طرق التجارة الرئيسية في

المنطقة دفع باتجاه السيطرة على العراق كطريق الحرير ما بين تبريز وبورصة، وطريق التوابل ما بين البصرة وحلب (٦٦).

وقد سعى العثمانيون للوصول إلى الخليج بأي ثمن وبأية وسيلة، ليس لمحاصرة الصفويين من البحر والحيلولة دون أي اتصال بينهم وبين البرتغاليين فحسب، بل أيضاً لمواجهة البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي (٦٧). وزاد الأمر خطورة بعد الاتفاق الصفوي البرتغالي سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م، الذي نص أحد بنوده على أن يتحالف الجانبان في مواجهة العثمانيين (٦٨). وقد دعم البرتغاليون الشاه طهماسب وزودوه بمدافع سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٨م، أثناء غزو السلطان سليمان القانوني لأذربيجان للمرة الثانية (٦٩). وكذلك الأمر فالشاه عباس الكبير اتبع السياسة نفسها بتحالفه مع القوة المسيطرة في الخليج ضد العثمانيين. فبعد أن أخلت السيادة البرتغالية على الخليج مكانها للسيطرة البريطانية، لم يتردد الشاه عباس في التحالف معهم ضد العثمانيين (٧٠).

وبالإضافة إلى أطماع الجانبين الصفوي والعثماني في العراق، فقد كان كلاهما مدفوعاً بحبب الهيمنة والسيطرة، وشأنهما في ذلك شأن أية دولة توسعية أخرى تسعى إلى نزع هويات الأقاليم التي تضمها، وتغيير ولائها لتحل محلها هوية جديدة هي هويتها وولاء جديد هو الولاء لها (٧١). فالصفويون اعتنقوا المذهب الشيعي الأثني عشري، وفرضوه بالقوة وحد السيف على المسلمين في إيران والعراق. فلما دخل الشاه إسماعيل بغداد سنة ٩١٤هـ / ١٥٠٨م أمر بلعن الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل على المنابر، وأمر بقتل عدد كبير من أهل السنة، وتدنيس قبور أئمتهم كقبر الإمام أبي حنيفة، وقبر الشيخ عبد القادر الجيلاني وغيرهما (٧٢). وما كان يتعرض له الأكراد من اضطهاد يندرج في هذا السياق.

وصعد الصفويون الوضع بإرسال شاه قولي إلى الأناضول لإثارة الشيعة فيها ضد العثمانيين في سنة ٩١٦-٩١٧هـ / ١٥١٢م، وهذا مما عجل بشكل أو بآخر بمجيء السلطان سليم الأول إلى العرش العثماني، الذي لم يكن أقل جبروتاً من الشاه

إسماعيل فأمر قبل توجهه إلى جالديران بقتل حوالي أربعين ألفاً من الشيعة في الأناضول محتماً بفتوى من فقهاء تصفه بأنه حامي السنة في العالم الإسلامي (٧٣).

وحينما وقعت بغداد في أيدي الصفويين للمرة الثانية سنة ١٠٣٣هـ / ١٦٢٢م، أعاد الشاه عباس الكبير ما كان اقترفه الشاه إسماعيل زمن الاحتلال الصفوي الأول ضد أهل السنة، لا بل تجاوز ذلك عندما أمر بتسجيل المسلمين السنة في بغداد في سجل بوصف ذلك لإبادتهم. ولولا تدخل السيد درّاج أحد أعيان الشيعة في المدينة، ونقيب الأشراف الذي سجل كثيراً من أهل السنة في سجله على أنهم من الشيعة، كان الشاه سيضع السيف في رقابهم جميعاً (٧٤).

وعلى العكس من ذلك، ولدواع دبلوماسية سوى أن أهل السنة يوقرون آل البيت جميعاً، احترم العثمانيون مقامات أئمة الشيعة في العراق. فقد زار السلطان سليمان القانوني العتبات المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية. وأمر أيضاً بإتمام بناء مقامين في الكاظمية للإمامين موسى الكاظم والجواد، كان البناء عليهما قد ابتدأ في عهد الشاه إسماعيل (٧٥).

وإذا ما تذكرنا أن ستة من أضرحة الأئمة الاثني عشر توجد في العراق: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في النجف، وابنه الحسين في كربلاء، وموسى الكاظم والجواد في الكاظمية، وعلي النقي والحسن العسكري في سامراء، يمكننا أن نفهم إصرار الصفويين على ضم العراق إلى دولتهم بوصفهم الأحق في خدمة أضرحة أئمتهم والتقرب إليها ومجاورتها. ولعل ما أورده مؤرخ الشاه عباس الكبير، إسكندر بك منشي، في سياق تبريره للاحتلال الصفوي الثاني للعراق يلقي الضوء على الهدف الصفوي الحقيقي حيث يقول عند شرحه لزحف الشاه عباس الكبير إلى بغداد: "... ظلم عامة الناس ظلماً شديداً، كما أن سكان العتبات الشيعية المقدسة لم يمكنهم النوم ليلاً" (٧٦)، ويقول منشي في مكان آخر: "كان وجود الشاه عباس مكرساً كله بالفطرة لحب علي وباقي الأئمة وخدمتهم. وحتى يبين مدى إخلاصه

دأب على دعوة نفسه (كلب العتبة السعيدة)، أي عتبة سلطان النجف، أي عتبة الإمام علي... وأي زيارة يقوم بها الشاه لأضرحة الأئمة تفسر على أنها خرق للسلم... ولكن الأحداث يجب أن تنتظر أوقاتها كما يذهب المثل والوضع الآن مختلف تماماً" (٧٧).

وعلى الجانب الآخر كان العثمانيون أهل سنة على المذهب الحنفي، وضريح إمامهم أبي حنيفة النعمان في بغداد. وكان الصفويون عند الاستيلاء على المدينة يعمدون إلى تدنيس الضريح، وهو الأمر الذي كان يفسره العثمانيون على أنه إهانة عظيمة ليس فقط لهذا الإمام فحسب، ولكن لجميع أتباع مذهبه. ولذلك أعاد السلطان سليمان القانوني بناء الضريح، وبنى عليه مسجداً وقبة وخاناً وداراً للضيافة، وأربعين حائوتاً، وقلعة تاوي مائة وخمسين جندياً بأسلحتهم ومدافعهم من أجل حمايته. وعندما وصل السلطان مراد الرابع بغداد سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م، أمر بنصب خيمته قبالة ضريح أبي حنيفة لكنه لم يزرها. ويروى أنه قال: "إنني أخجل من زيارة القبر قبل فتح بغداد ليجعل الظفر منه رجلاً يليق بتقديس تربة الإمام" (٧٨).

ولقد ترك هذا النزاع المريع حول العراق أثراً سلبية على الدولتين المتنازعتين وعلى العراق نفسه موضع النزاع. فكلتاها بذلت جهوداً مضنية، وضحت بجانب كبير من قوتها ومن مواردها لضرب الأخرى، في الوقت الذي كانت فيه القوى الأوروبية تتغلغل في المنطقة باتفاقيات وامتيازات وتحالفات لا مجال لحصرها أو ذكرها في هذا السياق. وفي آخر الأمر نجح العثمانيون في الاحتفاظ بهذا القطر جزءاً من ممتلكاتهم، ولم يهاجمه الصفويون بعد ذلك حتى سقطت دولتهم سنة ١١٠٨هـ / ١٦٩٤م. ولكن رغم ذلك فإن سابقة تاريخية كانت قد أرسيت، حيث إن السلالات الإيرانية المتعاقبة، استمرت في متابعة سياسة أسلافها الصفويين تجاه العراق. ولذلك دأبت إيران كلما شعرت أنها قوية، بغض النظر عن الأسرة

الحاكمة، على سوق جيوشها لمهاجمة العراق، ويتصدى العثمانيون للدفاع عن جزء حيوي من دولتهم. فكان هذا القطر ساحة نزف فيها الجانبان كثيراً.

أما العراق مسرح النزاع فقد عانى ألواناً شتى من المصاعب. فخروجه من يد الصفويين إلى العثمانيين أو العكس هز هذا البلد من أعماقه. فالحروب المتلاحقة، وأعمال التدمير والحصار، واتساع أذى الحرب باستخدام الأسلحة النارية ليمس الأهالي بقصد أو بغير قصد، إضافة إلى الكوارث الطبيعية خلال هذه الفترة مثل المجاعات والفيضانات أهلكت الكثير من السكان. وفي مثل هذه الظروف أهملت الشئون الداخلية، وتحطمت البنى الاقتصادية خاصة نظام الري عصب الحياة الزراعية للبلاد. كما أن اضطراب الأمن انعكس سلباً على التجارة وطرقها وعلى الحرف وأصحابها. وتغلبت قوى قبلية على بعض المناطق وتراجعت المدن والمناطق الحضرية (٧٩). كما أن أوضاعاً بالغة السوء على مختلف الصعد سوف لن تسمح بظهور حياة فكرية نشطة وفاعلة (٨٠).

وفي الختام نخلص إلى أن موقع هذا القطر وغياب حكومة محلية فيه جعلاه مطمعاً لكل طامع من زعماء المغول والتركمان ومن ثم مطمعاً لكل واحدة من الدولتين المسلمتين الكبيرتين المتجاورتين: الصفوية والعثمانية. وقد كان وسكانه الضحية الكبرى لذلك النزاع المرير. وإضافة إلى الدمار الذي لحق به وشل كل شيء، فإن الأمر الأخطر هو العمل على تغيير هويته وولائه وانتمائه وما ترتب على ذلك من دعاوى تثور بين الحين والآخر مطالبة بحق ببعض أجزائه بحجة خضوعه يوماً ما لهذا الطرف أو ذاك، غير أن هويته التي اكتسبها على الأقل، منذ الفتح العربي الإسلامي، هي الأقوى. ورغم زوال الصفويين والعثمانيين بوصفها سلالتين حاكمتين؛ الأولى في أواخر القرن السابع عشر، والأخرى بعد الحرب العالمية الأولى فإن الكثير من المشكلات المعقدة التي ألهمت النزاع بينهما رُحلت إلى ورثتهما دون حلول جذرية.

الهـوامش

- (١) أبو الفضل بن الفوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، بغداد ١٣٥١، ص ٣٢٥ - ٣٣٠؛ Henry H. Howorth, *History of the Mongols*, 4vols, London, 1888, vol. Pp. 128-31.
- (٢) إبراهيم خليل، "أوضاع العراق السياسية في عهد السلطان الجلائوي ١٣٨٢ - ١٤١٠م"، *آداب الرفدين*، العدد ٨، ١٩٧٧، ص ١٢٧-١٥٩.
- (٣) القرا قوينللو تعني الخروف الأسود والاق قوينللو تعني الخروف الأبيض. ولعل التسمية ذات أصول طوطمية. وكان هؤلاء من التركمان الذين تبعوا تيمورلنك في تحركاته فاستولى القرا قوينللو على أنريجان من ابن تيمورلنك، ميران شاه، وتبعهم الاق قوينللو في السيطرة على هذا الإقليم. ولمزيد من التفصيل حول هذه الإمارات التركمانية انظر؛ Richard Tapper, "Black sheep, white sheep, and Red- Heads," *Iran: Journal of Persian Studies*, vol. 1966, pp. 61-85.
- (٤) شهدت منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية نزاعا استمر عدة قرون، ونشأ على جانبي الحدود جماعات محاربة من الطرفين يغير كل منهما على أراضي الآخر. وقد بلغت الأوج على الجانب الإسلامي مع ظهور السلطنة السلجوقية. وبعد الغزو المغولي انتعشت روح الغزو القديمة ضد البيزنطيين. وكان من بين المسلمين الذين انخرطوا في أعمال الغزو هذه الإمارة العثمانية (إبراهيم بك حلیم، *التحفة الحلیمية في تاریخ الدولة العلیة*، بيروت، ١٩٨٨م، ص ٣١-٣٧. وانظر حول نشأة الدولة العثمانية:
- P. Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire*, London, 1938, pp.6-15.
- (٥) احمد بن يوسف القرمانی، *اخبار الدول وآثار الاول في التاريخ*، ج٣، تحقيق احمد حطیط وفهمی سعید، عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٢، ج٣، ص ١٥-٤٢. وانظر أيضا:
- Carl Brockelmann, *History of the Islamic Peoples*, London, 1980, pp. 260- 289.
- (٦) Roger Savory, *Iran under the Safavids*, Cambridge University press, Cambridge- New York, 1980. PP. 2-16.
- انظر ايضا أحمد الخولي، *الدولة الصفوية، القاهرة*، ١٩٨١، ص ٣٠-٣١.
- (٧) Michel. M. Mazaoui, *The Origins of the Safavids*, Wiesbaden, 1972, pp. 12, 25- 57; Savory, pp. 20-22.

- (٨) القرمانى، جـ ٣، ص ١١٥ وما بعدها؛ Mazaaoui, pp. 50-60 وقد اتخذ حيدر تاجا من الجوخ الأحمر بانتتي عشر رقعة سمي بتاج الحيدرية، وأخذ أتباعه يرتدونهم فعرفوا منذ ذلك الوقت باسم القزلباش. انظر عن القزلباش: Tapper, p.63.
- (٩) Hasan-i- Rumlu, *Ahsanut' Tawarikh*, 2 vols. Edited by B.Bhattaryya, translated by C. N. Seddon, Oriental Institute, Baroda, 1934, vol.II Pp. 4-5. Rumlu, vol II, pp. 12-30 (١٠)
- (١١) Tapper, p. 63; V.J.Parry, "The Ottomon Empire 1481-1520," *New Cambridge Modern History*, vol.1, Cambridge University press, London, 1981, p. 405 لاحقاً Parry- I
- (١٢) القرمانى، جـ ٣، ص ٩٧؛ عباس العزاوي، *تاريخ العراق بين احتلالين*، ٧ جـ، بغداد، ١٩٣٥-١٩٥٤. جـ ٣، ص ٣٣٨-٣٤٠ Stephen Hemsley Longrigg, *Four Centuries of Modern Iraq*, Beirut, 1968, pp-16-18.
- (١٣) Longrigg, pp. 18-19 ; Rumlu, vol II, pp. 46-47.
- (١٤) العزاوي، جـ ٣، ص ٣٤١-٣٤٥ Longrigg, 19;
- (١٥) إمارة المشعشين إمارة عربية أنشأها الشيخ محمد بن فلاح المشعشع حوالي سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٦م. واتخذ من الحويزة التي تقع على نهر الكرخة عاصمة له، وبسط نفوذه على إقليم عربسان. ويذكر أنه سليل بيت ينتمي إلى قبيلة ربيعة (جاسم حسن شبر، *تاريخ المشعشين*، بغداد، ١٩٦٥ ص ١٢، وما بعدها" ويرتفع نسبه لدى العزاوي إلى الإمام موسى الكاظم، العزاوي، جـ ٣، ص ١٠٨).
- (١٦) Rumlu, vol II, P. 47؛ Longrigg, P- 19-20.
- (١٧) Arnold Toynbee, *A Study of History*, 4 vols. Oxford University Press, London, 1934, vol.1 pp. 383-384; Parry-I, P. 410.
- (١٨) حليم، ص ٢٧٦؛ Savory, P. 39.
- (١٩) Parry- I, pp. 406- 408; Rumlu, vol II. pp. 62-63.
- (٢٠) Parry-I, PP. 410-411; Toynbee, vol.I, p. 484.
- (٢١) Toynbee, vol. 1, pp. 384-385; Savory, pp- 40-41.
- (٢٢) Savory, pp. 41-49; John Malcolm, *The History of Persia*, 2 vols, London, 1839, vol. 1, pp. 325-328.

- (٢٣) Toynbee, vol. I, pp. 386-387 . وحول آثار جالديران على الشاه اسماعيل، الذي اهتزت صورته في الأذهان وعاش بقية حياته في عزلة لأنه لم يكن يخطر بباله ولا ببال أحد من إتباعه أنه يمكن أن يهزم لانتقاله من فوز إلى آخر. أنظر: الخولي، ص ٩٥-٩٨.
- (٢٤) Rumlu, vol II, pp. 101-102؛ العزاوي، جـ ٣، ص ٣٦٢-٣٦٣.
- (٢٥) Longrigg, pp- 20-21؛ العزاوي، جـ ٣، ص ٣٦٣.
- (٢٦) Longrigg, p.22؛ العزاوي، جـ ٤، ص ١٢-٢٢.
- (٢٧) V.J. Parry, "The Ottoman Empire 1520-1566, " *The New Cambridge Modern History*, Cambride University , press, London, 1987 vol. II -p. 516
سيشار إليه لاحقاً: Parry- II.
- (٢٨) Longrigg, pp. 22-23؛ العزاوي، جـ ٤، ص ٢١-٢٢.
- (٢٩) Rumlu, vol II, pp. 113-115.
- (٣٠) القرمانى، جـ ٣، ص ٥٥-٥٦؛ حليم، ص ٩١.
- (٣١) Longrigg, pp. 22-24؛ العزاوي، جـ ٤، ص ٣٠-٣٧.
- (٣٢) Rumlu, vol II, pp. 167-168؛ العزاوي، جـ ٤، ص ٥٧-٦٠.
- (٣٣) Rumlu, vol II, pp. 198-169؛ العزاوي، جـ ٤، ص ٦٠-٦٤.
- (٣٤) العزاوي، جـ ٤، ص ١١٨، ١٢٨؛ الخولي، ص ١٣٢-١٣٧.
- (٣٥) Eskander Beg Monshi, *History of Shah Abbas the Great*, 2 vol. translated by Roger. M. Savory, West view press, Boulder, Colorado, 1978, vol II, pp. 699-700 .
- (٣٦) العزاوي، جـ ٤، ص ١٤١.
- (٣٧) Monshi, vol II, pp. 701, 723.
- (٣٨) القرمانى، جـ ٣، ص ٣٨٤ وما بعدها؛ Brockelman, pp. 322-325.
- (٣٩) حليم، ص ١١١؛ الخولي، ص ١٨٧؛ Brockelman, p. 325. ولمزيد من التفاصيل حول العلاقة العثمانية الصفوية عامة انظر: عبد العزيز عوض، *دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث*، ج٢، بيروت- عمان، ١٩٩١، جـ ٢، ص ١٣٧-١٦٤.
- (٤٠) حليم، ص ١٤؛ عوض، جـ ٢، ص ١٥٥-١٥٦.
- (٤١) اتفاقية أماسية: هي أول اتفاقية سلمية مكتوبة بين الصفويين والعثمانيين عقدت سنة ٩٦٢هـ/ ١٥٥٥م في عهد كل من سليمان القانوني وطهماسب الأول وجرى فيها تنازلات من كلا الطرفين، وتعديلات طفيفة على جانبي الحدود، بحيث تخلى السلطان عن ادعاءاته في تبريز

- وإروان ونخجوان، لكنه احتفظ بالعراق ومعظم كردستان وغربي أرمينيا. ولمزيد من التفاصيل أنظر: Parry-II, p.525; Savory, pp. 53-64.
- (٤٢) عوض، ج٢، ١٥٦.
- (٤٣) حليم، ص ١١٥-١١٦.
- (٤٤) أنظر حول شروط الصلح: عوض، ج٢، ١٥٦-١٥٧؛ الخولي، ص ١٨٨.
- (٤٥) العزاوي، ج٤، ١٦٣-١٦٤. وهولو أوهه لو خان هو زعيم الأكراد في أردلان أي كردستان الإيرانية و تمتع باستقلال فعلي عن الشاه أنظر: كمال مظهر أحمد، دراسات في تاريخ إيران الحديث والمعاصر، بغداد، ١٩٨٥، ص ٢٣٢.
- (٤٦) Monshi, vol -II, pp, 1076-1077.
- (٤٧) عوض، ج٢، ص ١٥٨؛ جابر إبراهيم الراوي، الحدود الدولية ومشكلة الحدود العراقية الإيرانية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٢٠.
- (٤٨) ياسين بن خير الله الكاتب العمري، زبدة الآثار الجلية في الحوادث الأرضية، تحقيق عماد الدين رؤوف، النجف، ١٩٧٤، ص ٦٠-٦١؛ أبو الوفا بن عمر العرضي، معادن الذهب في الأعيان المشرفة بهم حلب، تحقيق عيسى سليمان أبو سليم، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢، ص ٣٤٤-٣٤٥؛ العزاوي، ج٤، ١٧٢-١٧٣؛ Longrigg, pp. 51-55.
- (٤٩) Monshi, vol II, pp. 1216-1218؛ Longrigg, pp. 55-56؛ العمري، ص ٦١؛ العزاوي، ج٤، ص ١٧٤.
- (٥٠) Longrigg, pp. 56-57؛ Monshi, vol. II, pp. 1221-1222.
- العمري، ص ٦٢-٦٤؛ العزاوي، ج٤، ص ١٧٧-١٧٨.
- (٥١) Longrigg, pp. 57-58؛ Monshi, vol. II, pp. 1222-1226.
- العمري، ص ٦٤-٦٥؛ العزاوي، ج٤، ص ١٧٨-١٨٠.
- (٥٢) العرضي، ص ٣٤٦؛ حليم، ص ٢٦-٢٧؛ Longrigg, p. 56.
- وضع الشاه بكر صوباشي في قفص من حديد. وبعد سبعة أيام أضرم نارا بجوار القفص فكان الصديد يسيل منه وهو حي حتى مات بهذا العذاب الأليم. حليم، ص ٢٧.
- (٥٣) Longrigg, pp. 58-62؛ Monshi, vol II, pp. 1251-1255؛ العزاوي، ج٤، ص ١٨٤-١٩٠. حول صعوبة وضع الجيش العثماني ومعاناته خلال الحصار، أنظر: العرضي، ص ٣٥٠-٣٥٤.

(٥٤) درجوزين: ذكرها المقدسي باسم دازين وأنها من مدن كورة بَم في إقليم كرمان. وتقع على بعد مرحلة من مدينة بَم كما ذكرها الأندلسي، (المقدسي، أحسن القاسم في معرفة الأقاليم، تقديم محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧، ص ٣٤٧؛ الإندلسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩، ص ٤٣٨).

(٥٥) Longrigg, pp. 62-68 ; Monshi, vol II, pp. 1255- 1260 العزاوي، ج—، ص ١٩٠-٢٠٢.

(٥٦) العمري، ص ٦٧-٧٠؛ Longrigg, pp. 68-74.

(٥٧) عوض، ج—، ص ١٦٢-١٦٣؛ الراوي، ص ٢٢٧-٢٣٣.

(٥٨) Longrigg, pp. 35-38.

(٥٩) لمزيد من التفاصيل حول أوضاع الأكراد في إيران في العهد الصفوي انظر: كمال مظهر أحمد، ص ٢٢٩-٢٣٢.

(٦٠) حول هذا الأمر يذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة ٨٥٩هـ / ١٤٥٥م ما نصه: ".... لم يحج أحد من العراق في هذه السنة ولا الماضية خوفاً من الأعرابي المسمى بالشعشاع. وشعشاع هذا له من عشرين سنة يدعو للقيام معه ويزعم أنه شريف، وأنه المهدي، واجتمع عليه خلائق كثيرة، وعجز عنه ملوك الشرق، وهو أنه متى قصده بالعساكر هرب في مراكب واختفى بالجزائر. وليس له داب إلا هذا مع قطع الطريق وإخافة السبيل، وقتل من ظفر به من أهل السنة...."، انظر: أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري بردي، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج٢، تحقيق محمد كمال عز الدين، القاهرة ١٩٩٠، ج٢، ص ٥٦٧-٥٦٨.

(٦١) العزاوي، ج٣، ص ١٥٣-١٥٥.

(٦٢) شبر، ص ١٢ وما بعدها.

(٦٣) William Tucker, "Charismatic Leadership and Shi'ite Sectarianism", in *Islamic and Middle Eastern Societies*, edited by Robert Olson, Amana Books, Brattleboro, 1987. pp. 29-40.

(٦٤) العزاوي، ج٤، ص ١٦٣-١٦٤.

(٦٥) القرماني، ج٣، ص ٣٩-٤٠، Savory, p. 25.

(٦٦) حميد أحمد التميمي، "خطوات السيطرة العثمانية في المشرق والخليج العربي ١٥١٤-

١٥٤٧"، المؤرخ العربي، م ١٩، عدد ٤٧، ص ١٠١-١٠٣.

(٦٧) عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، دمشق، ١٩٧٤، ص ٦٠.

- (٦٨) الخولي، ص ٩١-٩٢؛ عوض، ج ٢، ص ١٦٥.
- (٦٩) Savory, pp. 106- 107.
- (٧٠) Malcolm, vol. I, pp. 361-365.
- (٧١) Barrington Moore, *Political Power and Social Theory*, Harper and Row, New York, 1965, p. 8.
- (٧٢) العزاوي، ج ٣، ص ١٥٣-١٥٥؛ علي الوردي، *لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث*، بغداد، ١٩٦٩، ص ٤٣-٤٤.
- (٧٣) Parry- I, pp- 806, 411؛ الوردي، ص ٤٥-٤٦.
- (٧٤) العزاوي، ج ٤، ص ١٨٠؛ الوردي، ص ٧٠. وحول إهانة أهل السنة وتدنيس أضرحة أئمتهم في بغداد بأمر الشاه عباس، أنظر: العرضي، ص ٣٤٥-٣٤٨.
- (٧٥) الوردي، ص ٥٤.
- (٧٦) Monshi, vol. II, p. 1218.
- (٧٧) Ibid, p. 1221.
- (٧٨) Longrigg, pp. 68-70؛ الوردي، ص ٥٤-٥٥، ٨٢.
- (٧٩) رافق، ص ٨٩-٩١.
- (٨٠) الوردي، ص ٩١-٩٢.

